## (٢٨) سنكلير لويس : بابيت

### بقلم : مارك شورر

لقد كان من الشائع منذ بعض الوقت قبل وفاة سنكلير لويس فى عام ١٩٥١ أن رواياته لم تعد تحتوى على شىء يمكن أن يقال الآن للأمريكيين ، أو على شىء مازال يرتبط ارتباطاً وثيقاً بجوهر الحياة الأمريكية . لم يعد الأمريكيون يتحدثون بمثل شخصيات لويس كما يمكن أى إنسان أن يتيقن من هذا ، هذا إذا كانوا قد تحدثوا بهذا الأسلوب على الإطلاق . لقد مات سنكلير لويس.ومن المحتمل تطبيق هذه التهمة بما فيه الكفاية على رواياته الإحدى والعشرين بصفة عامة وتقريباً على كل الكم الذى أنتجه من الروايات التى هى أقصر ، لكن هذه التهمة لا تجوز على ثلاث أو أربع أو حتى خمس روايات ، وعلى رواية « بابيت » من باب أولى . فرواية « بابيت » على الأقل تحتفظ بكثير من قيمتها الأصلية . من هنا كانت قوتها الأصيلة ، وهذا ما يوحى به تفسيران استرعيا انتباهى أخيراً .

منذ سنة مضت كان هناك مدرس للإنجليزية فى واحدة من كليات الولاية فى جنوبى كاليفورنيا ، يقوم بتدريس « بابيت » ضمن منهج الرواية الأمريكية . وفى مناقشة له لخطبة البطل التى ألقاها فى حفل الغذاء الذى أقامته « هيئة ملاك الأراضى فى زينيث (فى نهاية القسم الثالث من الفصل الرابع عشر) ، اقترح المدرس إرسال فقرات عدة من هذا الخطاب إلى محرر جريدة محلية محافظة إلى حد ملحوظ لكى ينشرها ضمن باب بريد القراء . هذا الاقتراح تسبب فى موجة من الضحك الذى أدرك مغزى الاقتراح مما جعل المدرس لا يعود إلى التفكير فى

اقتراحه حتى الأسبوع التالى عندما صعق من الدهشة بوقوع عينيه على باب «رسائل إلى المحرر» فى الجريدة التى تحدث عنها نفسها ، والتى قرأ فيها التالى :

«الأساتذة غير المسئولين يعتبرون تهديداً وخطراً ماثلاً !»

«المحرر : أحب أن أسترعى الانتباه إلى مشكلة تواجه مواطنى الولايات المتحدة . فعندما قرأت عن جامعة كاليفورنيا وعن الاضطرابات التى كانت تثار لكل شىء ولأى شىء – لم أستطع أن أعمل شيئاً سوى أن أفكر فى أسوأ تهديد يمكن أن يواجه أية حكومة عاقلة ، هذا التهديد لا يمثله الاشتراكيون المتعصبون بل هؤلاء الذين يعملون وراء الستار – تلك الطبقة الأرستقراطية المهذبة التى ترسل شعرها طويلاً وتسمى نفسها «بالليبراليين» و «الراديكاليين» و «الرافضين لكل تنظيم» والصفوة المثقفة .

إن الأساتذة والمدرسين الذين لا يقدرون المسئولية يشكلون أسوأ مافى هذه الطائفة ، ويغمرنى الخجل لأن الكثير منهم يقدم انطباعاً سيئاً عن كليات جامعة الولاية العظيمة . هناك مدرسون على وجه التحديد يبدو أنهم يفكرون فى أنه يتحتم علينا أن نسلم قياد الأمة إلى حفنة من العاطلين (المتشردين) !

وأعتقد أن مثل هذا الموضوع يجب أن نضع له حدًّا بأسرع ما يمكن !

«لويس سنكلير»

إن مقارنة هذا الخطاب بخطبة بابيت تؤكد أن الطالب الذى نفذ اقتراح معلمه المفاجئ لم يدخل سوى أبسط التغييرات على لغة النص الأصلى لكى تناسب الكلمات التى كتبت عام ١٩٢٢ موقفاً محليًّا فى عام ١٩٦٧ . وتحت اسمه التنكرى كتب الطالب عنوانه الخاص ، وفى خلال يومين تلقى خطابا «متفقاً مع رأيه تماماً» ويؤيد بكل قوة وقوفه وراء مرشح يمينى بالذات فى انتخابات قادمة .

استمرأ الطالب نجاحه فأعقب فى الحال خطابه الأول خطابا (ثانيا) ، وكان الأخير تقليدا لأسلوب لويس – بابيت الذى أخذ جانب الدفاع عن دافعى الضرائب فى المدينة وهاجم «الفلاسفة والشعراء ذوى اللحى وغيرهم من المغرمين بتدريس التطرف أو الاعتدال المستقر ! لقد عكف علماء السياسة اليسارية على تدمير مجتمعنا الديمقراطى ! وهؤلاء الأساتذة الإنجليز الذين وجدوا «أخلاقيات جديدة» فى أعمال سالينجر وميللر وأمثالها .» وكان هذا الخطاب موقعاً باسم لويس سنكلير للمرة الثانية ومكتوباً بكل الجدية الممكنة . فى سان دييجو بكاليفورنيا .

على الأقل يعيش جورج ف. بابيت ومعه سنكلير لويس !

لقد عاشوا فى الواقع عبر هذه البلاد كما يوضح التفسير (الثانى) : ففى أبريل عام ١٩٦٨ بدأت محطة إذاعة كولومبيا مسلسلاً تليفزيونيًّا بعنوان «الرواية الأمريكية العظيمة» تمت فيه المواجهة بين بعض الأجزاء التى مثلت دراميًّا من الروايات ولقطات لمواقف مشابهة فى الحياة الحقيقية ؛ أما عن الذين أدوا الأدوار فكانوا من الممثلين المحترفين والمواطنين العاديين على حد سواء . ولقد بدأ هذا المسلسل برواية «بابيت» ، وكان الإنتاج مثل الرواية ذاتها مثيراً للنشوة والشجن . ولقد علق المحرر التليفزيونى لجريدة «النيويورك تايمز» فى اليوم التالى بقوله : «عندما حمل المخرج الكاميرا إلى اجتماع نادى الليونز فى دالاث استطاع أن يعيد جورج ف . بابيت إلى الحياة بأسلوب رائع . وفى حمى المنافسة والمساومة فكرنا الناظر من وراء العدسة أن هناك شيئاً صغيراً من بابيت فى معظمنا» :

«كانت من أكثر النتائج إثارة تلك التى رأيناها مع بات هينجل (الممثل المحترف الذى أدى دور بابيت) والتى تمثلت فى إلقاء حديث بابيت الدعائى الشهير إلى أعضاء نادى الليونز المجتمعين (مواطنى دالاث) ، على حين أن الكاميرا تلاحظ انفعالات الأعضاء وما ينعكس على وجوههم . ولقد وافق الكثيرون على الأحاسيس التى عبر عنها . وسُمع أحد الأعضاء وهو يقول : إن الحديث كان يشبه تلك الأحاديث التى كان جولدووتر يلقيها منذ سنوات قليلة مضت .

ولاحظ عضو آخر على الحديث بقوله : «إنه يمتلك الديناميكية نفسها أيضا» .

وكان رجال الأعمال فى دالاث من أبواق الدعاية الهائلة لفضائل مدينتهم ، واتفقوا جميعاً على أنها تمر بعصر مزدهر .

وقد اعترف معظمهم أنهم يعتزون بالانتماء إليها ، وقالوا : إن الحصول على عشيقة كان لمجرد الإذعان لضغوط فى المجتمع أو فى العمل ، وليس نتيجة للانحلال الأخلاقى . إن أعضاء الليونز يلعبون بجدية ويعملون بجدية ، ولا يستطيعون تخيل أنفسهم وهم يعملون شيئاً آخر . وقليل منهم لديه بعض الشكوك ، لكن روح الاتفاق العام قد تم التعبير عنه من خلال جملة نطق بها واحد من ذوى الوجوه الجهمة عندما تساءل فى الحفلة الهمجية بقوله : «من ذلك الذى يملك مرحاً وبهجة أكثر منا ؟»

لقد كان أمراً حزيناً للغاية . . .»

وإذا كان لرواية مثل «بابيت» أن تحتفظ بقيمتها ودلالتها فى حياتنا – فإن هذا ربما كان أمراً مدهشاً عندما نتذكر أن إحدى خصائص سنكلير لويس المذهلة للغاية فى رواياته الناجحة هى التنبؤ فى اللحظة ذاتها بما يمكن أن يحدث فى اللحظة التالية ، وهو ما أصبح تياراً نفسيًّا فوميًّا سائداً . وبانتهاء هذه التيارات فإن للمرء أن يتوقع تماماً اندثار مثل هذه الكتب .

وكانت رواية «الشارع الرئيس» قد نشرت فى عام ١٩٢٠ . وهى تدور حول هؤلاء الكسالى المعزولين عن الحياة بين أسوار القرية الأمريكية ، ونشرت فى العام الذى أعلن فيه نفسه رسميًّا أن الحياة فى القرية الأمريكية قد أصبحت معزولة تماما . وأظهر تعداد عام ١٩٢٠ أنه فى نقطة معينة بين عام ١٩١٥ وذلك العام الذى عبر فيه المجتمع الأمريكى الخط الفاصل بين المجتمع الريفى وما أصبح يسمى بالمجتمع الحضرى ، فى هذه السنوات تحولت الأغلبية القديمة للفلاحين والقرويين إلى أقلية ؛ فى حين استوعب سكان المدن الأغلبية الجديدة .

وتبدأ أحداث رواية «بابيت» فى أبريل ١٩٢٠ . إنها لا تهتم فقط بمجتمع المدينة أو المجتمع الحضرى بل بالاتجاهات الحضرية الجديدة بصفة محددة أيضاً ، وهى الاتجاهات التى ارتبطت بالثقافة الأمريكية التجارية : على سبيل المثال فكرة «الدعاية المبالغ فيها» التى ترتفع إلى عنان السماء ببعض المصالح والاهتمامات المدنية الخاصة التى تتأله فى نهاية الأمر من خلال نظامنا الهائل الضخم للعلاقات العامة ؛ أو فكرة العمل «كخدمة» مقدمة للمجتمع ، وهى التى تحمل العلاقة نفسها بالممارسات العملية للروح التجارية كفكرة «العبء الملقى على عاتق الرجل الأبيض» والتى تنتمى إلى حقائق الاستعمار ووقائع الاحتلال ، لكنها تظهر لنا أيضاً كيف أن سكان مدينة زينيث الذين يعملون على ازدهارها مازالوا يحملون بين جوانحهم كثيراً من عقيدة آبائهم الريفية ؟ وكيف أنه من ذلك الصراع بين الاتجاهات القديمة والتى هى أكثر جدة يتولد الإحباط والذنب واليأس الذى يؤدى بالإنسان إلى نوع من العزلة وأخيراً إلى الفراغ والخواء ؟

وقبل أن ينتهى سنكلير لويس من «الشارع الرئيس» كان قد فكر بالفعل فى مضمون روايته التالية : «قصة رجل الأعمال المنهك ، المدخن فى عربة البولمان ، المتصل بالسلطة الأمريكية ، المغرم بلعب الجولف فى النادى الريفى فى مينابوليس وأوماها وأتلانتا وروشستر» ؛ رجل يمكن أن يسمى ج . ت . بامفرى من مدينة مونارك ، والكتاب يمكن أن يسمى «بامفرى» . وعند ختام «الشارع الرئيس» تبدو برارى جوفر على وشك الوصول إلى الشكل

النهائى لمدينة زينيث . وتبدأ المدينة حملة دعاية هائلة تحت رعاية النادى التجارى ، فى حين يصبح القادم الجديد «أونيست جيم بلاوزر» أو جيم المخلص» الزاخر بالحيوية الدافقة مديراً له ، وقد أقيمت المأدبة على شرفه وكانت مناسبة طيبة :

«لإلقاء الأغانى التى تسبح بحمد القوة والحركة والانطلاق والاستثمار والمشروعات ؛ وتتغنى بالدماء الحمراء ، والرجال الأشداء ، والنساء الشقراوات ،وبلاد الله المباركة ، وجيمس ج . هيل ، والسماء الزرقاء ، والحقول الخضراء ، والحصاد الوافر ، والتعداد المتزايد للسكان ، والعودة الجميلة إلى الاستثمار ، وغرفة المدفأة التى تعدد أساس الدولة ، والسناتور كنيوت نيلسون ، ومجتمع الواحد فى المائة ، والروح الأمريكية ، والإشادة بها بكل فخر—»

هذا بالإضافة إلى كل الشعارات المصكوكة للثقافة التجارية التى يرتفع بها نهيق الجمع الذى يتكلم نيابة عن هذا المجتمع . إنها كل الرموز التى تميز كل الأحاديث البلاغية المرتبطة بدنيا المشروعات الاستثمارية الأمريكية على أكثر مستويات الطبقة المتوسطة خشونة وبدائية . ولم تسفر حملة الدعاية المكثفة للمشروعات الجديدة فى برارى جوفر عن شىء . هذا هو عالم جورج ف . بابيت ، لذلك يتحتم علينا أن ننتقل إلى مدينة زينيث ذات الحجم المتوسط والتى فى الغرب الأوسط . إن «بابيت» مدخلٌ ساخر مرير لعقد من التوسع الاقتصادى المذهل الذى فقد عقله فى أغلب الأحيان ؛ فهى ملحمة سنوات «ازدهارنا» التى ظلت حتى يومنا هذا التوثيق الرئيس فى أدب وثقافة دنيا الأعمال فى أمريكا بصفة عامة ، ولم نعد بعد نستطيع القول كما قال وودرو ويلسون فى عام ١٩٠٠ بأن «تاريخ الأمة ليس سوى تاريخ قراها مكتوب على نطاق واسع» . وبقدوم عام ١٩٢٠ استبدلنا لفظ «القرية» باسم «زينيث» .

وعندما كنا نرى زينيث وهى تتراءى أمامنا فى غير وضوح من خلف برارى جوفر—كنا نرى فى الوقت نفسه برارى جوفر وهى مازالت تمر بعملية الاختفاء فى زينيث . فمن أول صفحة «يسبغ ضباب الصباح شفقته وعطفه على المبانى المتآكلة للأجيال الأولى : مبنى البريد بسقفه المزدوج ذى اللافتة المهلهلة ، ومنارات المنازل القديمة الكئيبة المصنوعة من الطوب الأحمر . . .» وهناك التناقض الواضح بين بابيت وحماه هنرى تومسون ؛« بين اليانكى النحيف الذى ينتمى إلى الطراز القديم ، أى رجل الأعمال الأمريكى الخشن الذى يمثل نمط المرحلة التقليدية فى دنيا الأعمال ، وبين بابيت الإنسان الجديد الممتلئ البنية ، الرقيق ، الكافى الذى يعيش على مستوى عصره لحظة بلحظة والذى يمثل عصره خير تمثيل .»

ولعل الحدود التهكمية لهذا التناقض تبدو كامنة فى المناقشة التى دارت حول المدن الصغيرة بين آل بابيت فى أول حفل غذاء يعقد فى الرواية عندما شمل حديث الجماعة كلها كل الأشياء الكئيبة التافهة ، وقدم تقليداً طبق الأصل لتبادل الكلمات التى يمكن تسميتها بالحوار ؛ كما نعى غياب الحوار « والثقافة » المعنى ذاته فى « المدن البدائية » التى مر بها تشام فرينك فى جولاته السياحية ، وهو « شاعر مشهور ومندوب إعلانات بارز » .

ومن الناحية المادية فقد أصبحت الثقافة ثقافة حضرية بمعنى الكلمة ، لكنها من الناحية النفسية كانت لا تزال ريفية فى معظم أجزائها ، وربما أصبحت أكثر إقليمية مما كانت عليه من قبل . وهذا شىء غريب ؛ لأنه بنهاية عام ١٩٢٠ عندما كان سنكلير لويس يكتب بالفعل « بابيت » – كان يبدو أنه آمن بأن نتيجة الاختلاف فى الحجم قد أدت إلى أن المدينة استطاعت أن تقدم لسكانها نوعاً من الخلاص الروحى أنكرته عليهم القرية . وكان قد كتب إلى فلويد ديل مشيراً إلى أنه ربما فى روايته « استدارة القمر » قد قال من خلال شخصية فيلكس فاى الشىء الذى قاله نفسه لويس من خلال شخصية كارول كينيكوت فى رواية « الشارع الرئيس » ، وقد قاله فى الوقت نفسه تقريباً . كتب لويس يقول :

« ألست تعتقد أن الاختلافات بين « استدارة القمر » و « الشارع الرئيس » لا تزيد عن نوعين كلاهما مهم :

الأول : أن فيلكس شاب متحرر ، وذكر بمعنى الكلمة يملك القدرة على الانطلاق حيثما يُرِدْ فى حين أن كارول (منذ بدأت تشعر بكيانها) لم تكن حرة .

والآخر : أن ديفنبورت لم يكن أكبر بما فيه الكفاية من ج . ب . لكى يناسب حجمه حجم العالم الذى يعيش فيه . امنح كارول مجرد فيلكس فاى واحد (الذى لم يكن أحمق وأنت تعلم ذلك) فسوف تكون راضياً بما فيه الكفاية لكى تبدأ فى خلق حياة جديرة بها . »

لكن الهدف الكلى من التوثيق فى « بابيت » يكمن فى بلورة الفكرة التى تؤكد أنه مع التحول الثقافى تصبح عبودية الفرد أكثر قسوة ورسوخاً وصلابة ، وتوجد الحرية فقط فى أضغاث الأحلام الطفولية المستحيلة .

ولقد استخدمت مرتين كلمة « التوثيق » وكان هذا الاستخدام عن قصد . فقد كانت رواية « بابيت » أولى روايات لويس التى تعتمد على ما عرف منذ ذلك الوقت بطريقته المميزة فى « منهج البحث » . وكانت رواياته الخمس السابقة قد أظهرت بدايات لبحث مشابه ، لكنها

اقتربت الآن كثيراً من المنهجية . ورسخت قدمه فى نادى كوين سيتى فى سينسيناتى وأوهايو ؛ وإذا كانت زينيث نموذجاً لأية مدينة أخرى فهو هذا النموذج بعينه . هنا قام بتأصيل أبحاثه ، وأصبحت كراساته الرمادية متخمة بالفعل بحساباته وأرقامه !

واشتملت هذه الطريقة على سلسلة من الخطوات : أولاً اختار مضموناً ومجالا يمكن أن يسيطر تماماً عليهما ، فلم يكن الأمر كما هو بالنسبة لمعظم الروائيين موقفاً مرتبطاً بشخصية أو مجرد منهج فكرى ، بل كان مجالاً اجتماعيًّا (طبقة خفية داخل الطبقة الوسطى) يمكن دراسته والعمل فيه . فى هذه الحالة كان عالم صغار رجال الأعمال الذى تكمن فى داخل الملكية الفعلية . وعندما وجد لويس نفسه مزوداً بكراريسه اختلط بنوعية الناس الذين تهتم بهم الرواية أساساً : فى عربات البولمان وغرف التدخين ، وفى مداخل الفنادق التى فى الشوارع الجانبية ، وفى الأندية الرياضية ، وفى مئات من الشوراع القذرة الضيقة – كان لويس يلاحظ وينصت ، ثم يسجل كل شىء بمنتهى الدقة فى كراساته ، مجموعات كاملة من التعبيرات المستقاة من لغة السوقة عند الأمريكيين ، وقوائم مسهبة من أسماء العلم ، وكل نوع من التفاصيل المادية . ومتى تحدد مضمون قصته فإنه يقوم برسم خرائط تفصيلية بدقة بالغة ، خرائط ليست فقط للمدينة التى تقع فيها القصة بل للبيوت التى ستقع فيها الأحداث ، بالإضافة إلى تخطيط للأرضية مع تحديد دقيق لمواقع الأثاث عليها ، وتخطيط للشوارع ونوع ولون الكلاب التى ستسير فيها ! ومتى استقرت شخصياته الرئيسة فإنه يكتب سيراً ذاتية كاملة لها بدون استثناء أى منها . ومن خلال هذا الكم من المادة فإنه يكتب ملخصاً لقصته ، ومنه ينطلق إلى « خطة » أكثر شمولاً كما أسماها بنفسه ، مع رسم صورة إيضاحية لكل منظر داخل هذه الخطة . وأحياناً تكون هذه الخطة فى مجملها تقريباً بطول الكتاب الذى سوف ينهض عليها . عندئذ تبدأ المسودة الأولى وعادة ما تكون أطول كثيراً من النسخة النهائية ، ثم يعقبها عملية طويلة من المراجعة والتقطيع ، وأخيراً يأتى النص الجاهز للنشر . وبالنسبة لرواية « بابيت » فقد رحل لويس بطول الولايات المتحدة وعرضها فى عامى ١٩٢٠ و ١٩٢١ . وفى إصغائه وملاحظته لم يكن يفكر إلا فى الرواية ؛ وكانت سينسيناتى بمثابة المحور لكل هذه الجهود .

ولم تكن النتيجة الفورية مدهشة على الرغم من أنه من الممكن أن يكون الأثر النهائى هكذا . كانت النتيجة الفورية رسماً روائيًّا تقريبيًّا لتقرير عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى مجاله

الخاص به . وعندما سئل لويس عن أصول « يابيت » بعد نشرها بعام واحد قال : إن كل ما يستطيع أن يتذكره أن الاسم الأصلى للشخصية الرئيسة كان بامفرى « وأننى خططت لكى أجعل كل الرواية تقع فى أربع وعشرين ساعة فى حياته ابتداء من رنين جرس المنبه وانتهاء به . أما باقى المضمون فقد تدفق بلا وعى لا أكثر ولا أقل ! »

وفى الواقع فإنه حتى وقت متأخر فى يوليو عام ١٩٢١ لم يكن لويس قد وجد عنوانه أو اسم بطله . فى ذلك الشهر كتب إلى ناشره مقترحاً عدة اقتراحات تتصل بعنوانه : « التعداد السكانى ٣٠٠٠٠٠ » ؛ « العمل الناجح » ؛ « رجل عملى طيب » ؛ « رجل بمعنى الكلمة » ؛ « رجل الدعاية المركزة » ؛ « المواطن الراسخ » ؛ « زينيث » . لكن اسم الشخصية الرئيسة : بامفرى كان قد تغير إلى فيتش ، ثم تغير إلى بابيت الذى وصفه بأنه « اسم شائع لكن من السهل تذكره » . وقد تراءت له « بابيت » ذات مرة كشىء حتمى لا يمكن تجنبه ، « وبعد عامين من الآن سنجد الناس يتكلمون عن البابيتية كمذهب . » ولقد حدث هذا بالفعل . وظل اسم « بامفرى » ملتصقاً بشخصية ثانوية : « الأستاذ جوزيف ك . بامفرى صاحب كلية إدارة الأعمال ، ومعلم فن الإلقاء فى الأماكن العامة ، واللغة الإنجليزية الخاصة بدنيا الأعمال ، وكتابة السيناريو ، والقانون التجارى » وقد ظل مفهوم البناء الأصلى راسخاً فى الفصول السبعة الأولى التى نتتبع فيها بطبيعة الحال جورج بابيت من مرحلة النوم الحالم إلى النوم الحالم مرة أخرى . لكن هذا ليس سوى ربع الرواية ككل .

أما بقية الرواية – الفصول السبعة والعشرون – فلم تتدفق « بلا وعى » كما توضح مادتها المرسومة بتحديد بالغ . لم تكن لا واعية على الإطلاق بل واعية إلى حد كبير تماماً : فقد كانت بالفعل سلسلة منظمة من الأجزاء المخططة مسبقاً ، كل منها يحتوى على مضمونه الخاص به ، ثم تتجمع لكى تقدم لنا تحليلاً ملتزماً ودقيقاً إلى حد بعيد لسيكلوجية الثقافة الأمريكية التجارية وحياة الطبقة الوسطى . وعبر الرواية إلى ما بعد منتصفها تمّ مزج هذه الأجزاء المخططة مسبقاً بحيث تحدد بداية الخطوط الثلاثة التى تشكل « الحبكة » .

وكان من الممكن لهذه الفصول السبعة والعشرين أن تحمل على نمط الروايات السابقة المبكرة عناوين لمضامينها : فالفصلان الثامن والتاسع اللذان يقدم فيهما آل بابيت حفل غذاء فى منزلهم الذى فى فلورال هايتس (مرتفعات الزهور) يمكن منحهما عنوان « أساليب السلوك المنزلى للأمريكيين » . والفصلان التاليان يمكن أن يكونا تحت عنوان « العلاقات الزوجية »

و «العادات السلوكية فى عربات البولمان» . أما الفصل الثانى عشر فيمكن أن يكون حول «الفراغ» : البيزبول ، والجولف ، والسينما ، والبريدج ، وقيادة العربات ؛ على حين يتناول الفصل الثالث عشر ظاهرة «المؤتمر السنوى لاتحاد الحرف» ، وطالما أنه ينتهى بدخول بعض الحثالة البالغين غير الناضجين فى بيت للدعارة فيمكن تسميته «بمهاترات الأحداث» . أما الفصل الرابع عشر فيعالج «أساليب الخطابة السياسية والمحترفة» ، والخامس عشر يركز على «بناء الطبقة الاجتماعية» ، فى حين يتفرغ الفصلان التاليان تماما «للدين» ، والثامن عشر «للعلاقات العائلية» . وكان أول الخطوط الثلاثة المنفصلة للحبكة قد بدأ فى الفصل التالى : التاسع عشر .

وإذا أجلنا مناقشة هذه العناصر للحظة واحدة فإنه يمكننا ملاحظة أن الموضوعات العامة المتبقية هى : الغذاء الأسبوعى الذى يقدمه النادى خدمة لأعضائه ، وحياة الأعزب ، ومحل الحلاق ، وعلاقات العمل ، وحانات الخمور المحظور بيعها ، والهوس الدينى . إنها عرض دقيق شامل لحياة اجتماعية كاملة ، ويتضح الهدف الأنثروبولوجى التقريبى منها فى جملة مثل هذه : «والآن كانت هذه هى طريقة الحصول على الكحول تحت سيادة حكم الاستقامة والتحريم» ؛ وكانت هذه الجملة مقدمة لزيارة بابيت لمحل صانع للأحذية .

وإذا كان العرض الشامل الذى يتشكل من هذه الأجزاء قد تكامل بشكل مدهش فإن ترتيبها على أية حال كان عشوائيًا تماماً . فقد كان من الممكن تقديمها تقريباً فى أى سياق آخر ، ذلك لأنه لم يكن هناك ثمة حبكة أصيلة أوتتابع مسبب متسق للأحداث الدرامية من البداية حتى النهاية يمكن أن يقرر نظامها بالضرورة . وقد تم التغلب على هذا التكوين الذى اتخذ شكل الشذرات إلى حد ما بوجود الكيان الفريد لبابيت الذى يتحرك خلالهم جميعاً فى المجرى المتصاعد لعدم رضائه وثورته وتقهقره ونكوصه على أعقابه حتى التقاعد والاستقالة . وتركزت كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث فى سرد منفصل–لاأكثر ولا أقل– عن المراحل الأخرى : فالمرحلة الأولى تكاملت بعد أن أطلق بول رايزلنج – الصديق الوحيد الحقيقى لبابيت – الرصاص على زوجته ، وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات ، هذا الحدث يجعل بابيت يشعر فجأة أن حياته فارغة ، وأن كل هذه الأنشطة ذات الضجيج والتى يمارسها ليس لها أى معنى ، وهذه الحالة النفسية تجعله يقرر أن يكون «ليبراليًا» (على الرغم أنه لا يكاد يعرف معنى الكلمة) ؛ وهكذا يعلن استقلاله عن قبيلة شركائه فى العمل . ويختفى بول رايزلنج

تقريباً من الرواية ، لكن بابيت يقابل الآن صديقاً جديداً : السيدة تانيس جوديك المغامرة البلهاء السخيفة التى بدأ معها – فى غياب السيدة بابيت – علاقة غرامية ذات أشكال عدة .

هذا الانحراف العلنى بعيداً عن العرف الأخلاقى المعترف به لدى الطبقة الوسطى – إنما هو بمثابة التجسيد الدرامى لثورته ضد القيم الثقافية لدنيا الأعمال ، إنه يحاول نسيان الإحساس بفقدان الرضا والأمن ، والهروب من الخوف الذى يعانى منه فى الوقت الذى يمارس فيه نفسه الشراب والعربدة مع بنات الليل وأصدقاء السوء الذين يشكلون جماعة لا رابط بينها سوى التفاهة وحب المظاهر ، وهم فى الواقع أصدقاء تانيس جوديك . وعندما تذوى هذه الملذات فإنه فى الحال يتخلى عن صداقته بتانيس التى تختفى عندئذ من الرواية . وفى الوقت نفسه نجد فيرجيل جانش ومعه شركاء بابيت الآخرون يحاولون تكوين « عصبة المواطن الصالح » وهى تنظيم على شكل لجنة تسعى لحفظ النظام فى مواجهة أى تحركات عمالية ، ويحاولون إكراه بابيت على الانضمام إليهم . ونظراً لمزاجه العنيد الذى لا يرضى عن شىء فإنه يقاوم كل جهودهم . ومن ثم فإنه يعانى من الخسائر الاجتماعية والاقتصادية المزعجة ؛ ولا ينقذه من هذا كله سوى عملية الطوارئ التى تقوم بها زوجته بمحض الصدفة السعيدة والتى تمكنه من التفادى من الوقوع فى شباك العصبة ، وهكذا يعود أدراجه إلى الحياة الآمنة القديمة التى تتمثل فى « نادى ملوك الدعاية » وفى النظام المستقر للحياة العملية فى زينيث .

وعندما يستعيد إحساسه بالأمن كلية فإنه يدرك فى نهاية الرواية أنه لم يفعل فى حياته أى شىء كان يريد أن يعمله فعلاً فى الواقع ؛ ويأمل حياة أكثر امتلاء وأكثر استقلالا لابنه ثيودور روزفلت بابيت الذى يبدو عاجزاً عن الإتيان بأى جديد ؛ ولكنه لا يستطيع أن يحدد لنفسه أى شىء حقيقى أراده بالفعل سوى ما فعله دائماً فى حياته الواقعية .

ومأساة بابيت أنه لم يستطع على الإطلاق أن يكون شيئاً آخر غير بابيت ، حتى على الرغم من الومضات التى كان يدرك فيها حقيقة كيانه الذى لم يحبه دائماً :

« كان واعياً بالحياة وينتابه الحزن من حين لآخر . وبدون وجود أمثال فيرجيل جانش أمامه ، وهم الذين يحفزونه على لبس قناع التفاؤل العنيد ، كان يعتقد ، بل إنه اعترف إلى حد ما بأنه كان يعتقد أن أسلوب حياته كان آليًّا إلى حد لا يمكن تصديقه . فقد تمثل ذلك فى عمله الآلى الذى لم يخرج عن نطاق البيع النشيط للمنازل التى بنيت بأسلوب ردىء ، وفى عقيدته الدينية الآلية التى تقوقعت داخل نظام كنسى صعب جاف منعزل عن الحياة الحقيقية

فى الشوارع ، ومرتبط بأسلوب لا إنسانى لا يكن الاحترام إلا لأصحاب القبعات العالية ! كما تمثل أسلوب حياته فى ممارسته الآلية للعبة الجولف وحفلات الغذاء والبريدج والثرثرة . وباستثناء بول رايزلنج فإن كل صداقات بابيت ميكانيكية تجمع بين الود والمرح ، لكنها لم تجرؤ إطلاقاً على اختيار الاستقرار الحقيقى . »

إن الرعب والوحدة اللذين أحس بهما فى فترة تذوقه القصيرة للحرية (وكانت تلك الحرية نفسها تتكون أساساً من ممارسة آلية للانحلال الجنسى) – هذين الإحساسين نبعا من الحقيقة التى أوضحت أنه لا شىء على الإطلاق عندما يكون حرًّا . إن ذاته (الوحيدة) هى الذات التى داخل دائرة الانتماءات التقليدية فقط .

ومنذ نشر « بابيت » ، تعلم كل واحد أن الانتماء التقليدى هو الثمن الباهظ الذى تفرضه ثقافتنا التجارية السائدة على الحياة الأمريكية ، ولكن عندما نشرت « بابيت » كانت بمثابة رؤيا جديدة بالنسبة للأمريكيين ، ولذلك اختلفت هذه الرواية وكلُّ الروايات التى تتخذ من حياة التجارة والأعمال مضموناً لها والتى صدرت قبل « بابيت » .

والأدب الأمريكى له تقاليد غنية وإن كانت قليلة فى مجال الرواية التى تدور حول دنيا التجارة والأعمال : هنرى جيمس ، ووليم دين هاولز ، وتشارلز وفرانك نوريس ، وجاك لندن ، وديفيد جراهام فيليبس . وروبرت هيريك ، وآبتون سنكلير ، وإيديث وارتون ، وثيودور درايزر ، وإيرنست بول ، وبوث تاركينجتون – كل هؤلاء وغيرهم كانوا مهتمين بشخصية رجل الأعمال ؛ وبعد جيمس وهاولز كان تاركينجتون هو الوحيد الذى وجد فى هذه الشخصية كل الفضائل الأمريكية القديمة الراسخة ، وكان العمل مرادفاً للفساد الأخلاقى : فقد كانت دنيا الأعمال زاخرة بالمنافسة الوحشية ، والعدوان المفترس ، والإجرام الدموى ؛ فالدافع وراء رجل الأعمال كان القوة والمال والمكانة الاجتماعية طبقا لهذا الترتيب ، لكن رجل الأعمال فى كل تلك الروايات كان الرأسمالى الأخطبوط العاتى ، وصاحب الصناعة القوية ، والمضارب المذهل فى الأسواق المالية ، والممول الأسطورى ، وإمبراطور المشروعات العملاقة ، والفرد الذى يقبع على القمة وليس مسئولاً أمام أى أحد سوى نفسه ! فهو المعادل الذى يتساوى هو ورجلُ الحدود المستقل والمتحفز للهجوم فى العالم القديم الذى أدى إلى العالم الصناعى المتطور . وقد كان اهتمامه منصبًّا على الإنتاج إذا كان من أجل المزيد من المال الذى يتولد من المال الحالى .

وبعد الحرب العالمية الأولى مع انتقالنا إلى الثقافة الحضرية كان الرأسمالى العاتى ولا يزال أكثر الشخصيات الدرامية الزاخرة بالأبعاد المتعددة فى دنيا العمل الأسطورية ، لكنه لم يعد بعد الشخصية (الوحيدة) التى تمثل هذا العالم ، وكانت رواية « بابيت » بمثابة اكتشاف لهذا الفارق . وإذا كان جورج ف . بابيت واقعاً تحت وطأة ذلك الحب الجارف الغامض للاستقلال القديم للحدود ، فإن عدم كفايته فى القيام بهذا الدور قد وضح بما فيه الكفاية من خلال رحلاته التى كان يقوم بها إلى مين فى إجازاته المثيرة للسخرية والاستهزاء ! كانت شخصيته تجسيداً للعالم المندثر لرجل الأعمال الصغير ، وبصفة خاصة رجل الطبقة الوسطى الصغير . وإن لم تكن أخلاقياته أفضل فإن عوراته لم يكن المقصود بها الاستعراض المدهش على أية حال : فلم يتعد الأمر سوى الغش اليسير فى صفقة ما ، أوكذبة صغيرة على زوجته ، أو اقتناص مضاجعة جنسية عابرة يدعى بعدها أنها لم تحدث ! فلم يكن على الإطلاق شبيها للأتوقراطى الذى يؤمن بالفردية المطلقة ، بل كان دائماً ذلك المنتمى المذعن لشروط الجماعة . لم يكوِّن نفسه بنفسه ؛ فقد كان نجاحه يعتمد على العلاقات العامة ، إنه لا يحب أن يتحكم فى الآخرين ، بل ينضم إليهم إيثاراً للسلامة ، إنه يؤيد ويساند ويعضد زملاءه ، كما يرفع عقيرته بالغناء ، ويصلى وسط الحشد ، ويرفض كل أنواع الانشقاق ، ويهاجم أى اختلاف فى الرأى ، كل هذا من أجل ركوب موجة الحشد . ومن خلال السيادة المطلقة للعلاقات العامة فإنه يمحو العلاقات الإنسانية ، ومن ثم فإنه يمحو فى النهاية – دون أن يدرى على الإطلاق – كل ما تبقى من الملامح البائسة لإنسانيته الخاصة به !

كل هذا أرجعته رواية سنكلير لويس إلى ثقافة أصبحت مدركة لعجزها عن أن تتسامح مع العمليات التى أدت إلى صنعها . وقد قامت روايته بهذه المهمة بأسلوب مختلف : ذلك أن الروايات التى كتبت قبلها بصفة عامة كانت بمثابة رفض ميلو درامى وقور أو فخيم للشخصيات المتوحشة التى تجسد عنصر الشر العدوانى . أما « بابيت » فكانت رواية ساخرة بخشونة من ذلك الحشد من البلهاء والمهرجين الذين يجسدون العبث بالإضافة إلى عدوانيتهم وتفاهتهم ، لكن على الرغم من كل هذا فقد كان بابيت نفسه شخصية مثيرة للشجن : إذن كيف كان من المحتمل أن تفشل هذه الرواية ؟ إنها لم تفشل ، بل كانت واحدة من أعظم النجاحات العالمية فى تاريخ النشر كله .

وكانت الاستجابة الأوربية لها متعة صافية رائعة : هكذا كان دائماً الأسلوب الذى

عرفت به أوربا أمريكا ؛ فهى فى نظرها بلد خشن ، مادى ، راض عن نفسه ، شوفينى ، والآن نجد أمريكيًّا يقدم اعترافه بهذا إلى العالم . وفى الولايات المتحدة كانت الاستجابة لسبب غير مفهوم أقل حدة . ومن هؤلاء – سواء الذين لم يشعروا بأى انفعال أو الذين لم يسيطر الاستفزاز عليهم – لم تصدر سوى شكوى يسيرة من أوجه النقص فى « بابيت » كرواية : فعلى سبيل المثال لم يلحظ أحد البناء المخلخل أو تكرار الفكرة نفسها فى السلسلة الطويلة من العروض الاجتماعية الصاخبة . وقد أدركت إيديث وارتون فى خطاب التهنئة الذى أرسلته إلى لويس أنه يبدو أنه يعتمد على قدر مبالغ فيه من العامية ، وعلى محاكاة لا نهائية تقريباً لثرثرة أهالى الغرب الأوسط ، لكن لم يهتم أحد من الآخرين بهذا ! هل اشتكى أحد على سبيل المثال من أن استخدام لويس للخطب العامة على جميع المستويات والأشكال ، وغرامه بالمحاكاة – قد أوشك أن يخرج به عن حدود احتياجات فنه الروائى ؟ وربما تجدر بنا الإشارة هنا إلى اعتبار هذا جزءاً لا يتجزأ من الأسلوب الساخر ! فإلقاء الخطب العصماء من الخصائص القديمة للشخصية الأمريكية ، وكان يعتمد أساساً على البلاغة العاصفة الهوجاء التى لا تمت إلى العقل بصلة ، تماماً مثل الخطب التى مازالت تلقى فى المؤتمرات التى يعقدها كل من حزبينا السياسيين الرئيسين ، والتى تثير فى نفوسنا الألم عندما تذكرنا بهذه الأساليب الفجة . ويضيف استخدام لويس للخطابة الطنانة نغمة متضخمة إلى الهدير الصاخب للجمهور الذى يصخب ويجعجع بطول الرواية ! وإذا كان لويس يسمح لبابيت بأن يعجب بشخصية تشان موت فذلك لأنه « يستطيع أن يلقى بليغ الكلام حتى إذا لم يكن لديه ما يقوله » ، وهو يلقى بملاحظاته أيضاً عن القلق الفارغ والصاخب للحياة الأمريكية .

لم يكن أسلوب التأليف بصفة عامة ولا حتى تعرية لويس الساخرة للثقافة الأمريكية التجارية فى ذاتها من العوامل التى أثارت اضطراب هؤلاء القراء الذين كانوا نهباً للحيرة ، بل كان السبب فى هذا الاضطراب فشلهم فى أن يجدوا شيئاً آخر فى الرواية غير تلك الزوائد المتضخمة . فقد رأوا مع جورج سانتايانا الذى انفعل بالرواية « أنها خالية من أى إيحاء باتجاه محدد يمكن أن يأتى الخلاص عن طريقه . »

وكانت الشكوى من لويس فى الواقع هى شكوى لويس نفسها من بابيت : « إنه لم يكن يمتلك القيمة أو المثل الأعلى الذى يمكنه من التحدث على أساس راسخ . » فإذا لم يكن بابيت بحسه الهزيل بوجود قيم الامتياز والسعادة والعاطفة والحكمة فى مكان ما يملك أية فكرة عن

الكيفية التى يخرجها بها إلى حيز التنفيذ – فهل فعل لويس هذا ؟

لقد أصبح من الشائع القول بأن لويس نفسه كان من ملامح جورج ف . بابيت عندما تطلع إلى قيم أعلى من قدرة بابيت . وكانت التهمة حقيقية من عدة وجوه ، لكن لويس كان مختلفاً عن بابيت بأسلوب لا يمكن أن يرقى إليه الأخير : لقد « رصده » ، وطالما أن أحداً لم يرصد بابيت من قبل فقد « خلقه » ، واستمر بابيت فى أدبنا كما استمر فى حياتنا حيث مكننا كلنا من رؤيته لأول مرة ولزمن مستمر بعد ذلك .

وهو مستمر بنوع خاص من الصلابة والحيوية ؛ وهو موجود بأسلوب لا يتطرق إليه الإجهاد . وهذا الإنجاز يصدر بوضوح عن المنهج الفنى الذى اتبعه لويس .

إن ضخامة الرصد الاجتماعى التى لاحظناها – الرصد الذى تتبعه لويس بكل التزام المذهب الطبيعى – لم تكن فى نهاية الأمر أداء ينتمى إلى المدرسة الطبيعية بأية حال ! إنها تشترك إلى حد ما والمجال الذى نسميه الآن بالفن الشعبى ( البوب آرت ) . فلتأخذْ على سبيل المثال أية لمحة دنيوية محضة من حياتنا اليومية ، ثم استمرَّ فى ملاحظتها بكل تفاصيلها الدقيقة بل الميكروسكوبية ، ثم كبرها ، وكرر هذه العملية مرات ومرات بهذا الشكل الرتيب – ففى النهاية لن تجد شيئاً طبيعيًّا ، بل سيخرج منها شىء مغرق فى الغرابة ، بل الوحشية ، شىء سيكون فى النهاية ذا وجود ملموس وأكثر رسوخاً من الأسلوب العبثى الذى نشأ منه أصلاً !

كانت هذه الخاصية فى ذهن كونستانس رورك عام ١٩٣١ عندما استثنت لويس من بين معاصريه : « ينهض هذا الاستثناء الوحيد على أساس أن هؤلاء الروائيين الذين ظهروا لم يتمكنوا من صبغ لمحة واحدة من الحياة المعاصرة بصبغتهم ، ولم يتركوا لون خيالهم عليها إلى الأبد بعد ذلك . وبالطبع كان سنكلير لويس هو الاستثناء . . . » ولعل لقب « الروائى » بمفهومه العادى لم يكن اللقب الصحيح الذى يمكن أن يطلق عليه ، ولذلك أطلقت عليه كونستانس رورك لقباً أكثر شمولاً : « صانع الأساطير » وهو اللقب الذى مازلنا نربط اسمه به .